الفصل التاسع

مصر

الصحبة الصالحة

إن كانت الفصول السابقة قد اشتملت عل تفاصيل خاصة بكل من أسد الدين شيركوه وجمال الدين الأصفهاني ونور الدين محمود وبالطبع نجم الدين أيوب، فذلك لأن كل هؤلاء قد أسهموا بشكل فعال في تشكيل شخصية صلاح الدين الأيوبي.

أبالأمس فقط ... ؟!

وبعيدا عن التدريبات، بدأت خبرة صلاح الدين العسكرية في خوض المعارك من خلال تنقلاته في مدن الشام المختلفة مثل حلب وحمص وحماة ودمشق تحت لواء الدولة العباسية تارة والدولة النورانية تارة أخرى. وذلك طبعا أعقبه دوره الهام الذي أداه بنجاح باهر على عدة مراحل في مصر. وبالتالي فمن المهم إلقاء الضوء على الأحوال التي كانت تعصف بمصر قبل قدوم صلاح الدين إليها.

كانت الأمة الإسلامية مقسمة في ذلك الوقت بين الدولة العباسية ومركزها بغداد، والدولة الفاطمية ومركزها القاهرة. وكان الخليفة العاضد على رأس الدولة الفاطمية في تلك الفترة التي شهدت ضعف شديد للأحوال بمصر. ورغم اللقب الذي كان يعرف به الحاكم الرسمي للدولة إلا أن الأسماء ليست دائما المعيار الذي

يؤخذ به عند تقييم الشخصية. ويتضح ذلك من خلال عدم تمكن الدولة الفاطمية من الدفاع عن بيت المقدس في أي وقت من الأوقات، بل إنها سحبت قواتها رغم ادعاء قادتها بالحماس للإسلام. ويرجع ذلك إلى ضعف الخليفة وفرض رؤساء الوزراء والوزراء قبضتهم على مقاليد الأمور في تلك الفترة. واستشرت آفة هؤلاء الوزراء ما بين جشعهم وحرصهم على إثراء أفراد أسرهم وذويهم، غير عابئين بمصالح الأمة. ونتيجة لذلك أصبح الفقراء يهلكون فقرا والمفسدون يتفحشون ثراء، وذلك طالما أن الوزراء حرصوا على إرضاء هؤلاء المفسدين والانتفاع منهم.

مصر ... خير الأجناد ... وأرض الخير

كان رئيس وزراء مصر في ذلك الوقت يدعى شاور، وكان على خلاف كبير مع أحد الوزراء اسمه ضرغام. وفى إحدى المعارك التي جرت بينهما استطاع ضرغام أن يهزم شاور ويطرده من مصر. ولم يجد شاور سبيلا إلا أن يلجأ إلى نور الدين محمود طالبا منه المساعدة ليستطيع أن يستعيد مكانته بمصر، وذلك مقابل مبلغا من المال. وقد أخذ نور الدين أمرين في الاعتبار، أولهما أن شاور كان على حق، وثانيهما أن نور الدين محمود كان مهتما للغاية بأمر مصر رغم بعدها عن الشام لأنه كان يدرك تماما أنه بحاجة للتحالف مع مصر لتحرير بيت المقدس، فمثلما لا يستطيع الطائر أن يحلق بدون أحد جناحيه، فكانت الشام ومصر جناحي الأمة اللذان يحتاج إليهما نور الدين لتخليص بيت المقدس من أيدي الصليبيين. وفى هذا الخصوص كانت تعلق بذهن نور الدين محمود أحاديث رسول الله ﷺ التي تنبئ بأنه ليست هناك معركة فاصلة تخوضها الأمة الإسلامية دون أن يشارك فيها رجال وشباب مصر. وهذا ليس تحيزا لأني مصري ولكن التحيز لحديث رسول الله ﷺ: **"إذا فتحت عليكم مصر من بعدى فاتخذوا منها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض"**. وقيل: "ولم يا رسول الله؟"، فقال ﷺ: **"لأنهم في رباط إلى يوم القيامة"**. فإذا كان الرسول

الكريم قد وصف الجند المصريين بهذا الحال فهي بمثابة رسالة إليهم لتحسين علاقتهم بالله سبحانه وتعالى وغرس الطموح في نفوسهم لنصرة الإسلام. وفى حديث آخر قال النبي ﷺ: **"مصر كنانة الله في أرضه. ما كاد أهلها أحدا إلا كفاهم الله مؤنتها"**.

وإذا كانت هذه هي المرجعية الدينية التي نتناولها، فإن لها بالطبع بعدين أحدهما سياسي والأخر عسكري لم يغفل عنهما نور الدين محمود، وذلك إلى جانب علمه بثروات مصر الزراعية والاقتصادية من ناحية، ومدى ثراء الحاكم الفاطمي من ناحية أخرى، حتى شاعت مقولته: "بجنود الشام أفتح مصر، وبأموال مصر أفتح بيت المقدس". وبالتالي كانت فكرة القيادة الموحدة للشام ومصر موجودة بالفعل في ذهن نور الدين محمود عند تخطيطه لخوض معركة مصيرية، حيث كان يعتمد على الشام ومصر اعتماد الطائر على جناحيه للطيران.

البداية

واستغرق نور الدين قدرا من الوقت في التفكير إذا كان الأحرى به أن يلبى طلب شاور في مساعدته على العودة إلى مكانته في مصر مقابل مبلغ مادي كبير يصل إلى خمسين ألف دينار ذهبية أم لا. وعندما وافق نور الدين على طلب شاور، عين أسد الدين شيركوه قائدا للقوة المتجهة إلى مصر، والذي اتخذ من صلاح الدين الأيوبي مساعدا أولا له وهو مازال في السادسة والعشرين من عمره، وكان ذلك في عام ٥٥٨ هجرية. والملاحظ أن أسد الدين اختار صلاح الدين ليكون ذراعه الأيمن وهو لم يتم بعد العقد الثالث من عمره. فلنأخذ إذن العبرة من هذا الاختيار ولنقدم على تشجيع احتكاك شباب القادة بمن هم أقدم منهم حتى يكتسبوا خبرتهم . وقبل تكليفه بتلك المهمة، كان صلاح الدين على رأس الجهاز الأمني لدمشق، وقد أثبت قدر من الكفاءة في حفظ الأمن في منطقة دمشق الآهلة

بالسكان، حتى إن الشاعر علقمة الدمشقي يحذر لصوص الشام من صرامة صلاح الدين من خلال الأبيات التالية:

رويـدكم يـا لـصوص الـشام ... فـإني ناصـح لكـم في المقـال
أتـاكم سـمى النبـي الكـريم ... يوسـف رب الحجـا والجـمال
فـذاك يقطـع أيـدي النـساء ... وهـذا يقطـع أيـدي الرجـال

تحرك أسد الدين شيركوه ومعه صلاح الدين وألف من الجند بغرض الوصول إلى مصر. وبما أن أمراء قلعتي الكرك والشوبك في منطقة العقبة كانوا يرفضون عبور جنود الشام لأراضيهم، فكان مستحيلا أن يدخل الجيش النوري إلى مصر من جهة صحراء سيناء. ومن جهة أخرى، كان على أسد الدين وجنده أن يصلوا إلى مصر في سرية تامة. ولذلك تحركوا في اتجاه البحر الأحمر وعبروه إلى الصحراء الشرقية ومنها إلى القاهرة. وفى مكان قريب من ضريح السيدة نفيسة وقعت معركة حاسمة بين أسد الدين شيركوه وضرغام، وكتب النصر فيها لأسد الدين. وقع ضرغام في قبضة أهل مصر الذين فتكوا به، وتولى شاور قيادة البلاد من جديد كرئيس للوزراء. وكان كل ذلك يحدث بدون أدنى تدخل من الخليفة العاضد، مما يدل على ضعفه واستفراد الوزراء بالحكم وفسادهم من جانب، ومعاناة الرعية بسبب سوء الأحوال المعيشية من جانب آخر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال:٥٨].

بعد أن عاد شاور إلى منصبه، طالبه أسد الدين شيركوه بسداد مبلغ الخمسين ألف دينارا ذهبيا فأبى وامتنع عن أداء ما كان قد اتفق عليه. وحاول أسد الدين شيركوه أن يذكره بشروط وأمانة العهد في الإسلام، ولكن محاولاته لإيقاظ ضمير

شاور ذهبت أدراج الرياح. بل إن شاور منع المؤن عن جيش أسد الدين حتى يتضور جوعا ويهلك، وأرسل إلى أموري أمير بيت المقدس يطلب منه مقدم حملة سريعة للقضاء على جيش أسد الدين. وبالفعل، تحرك من بيت المقدس ثلاثون ألف مقاتل فنزلوا على منطقة بلبيس وحاصروا جيش أسد الدين شيركوه المؤلف من ألف جندي. وكان ذلك الاتفاق يتضمن أن يدفع شاور إلى أموري مبلغ خمسمائة ألف دينار ذهبية لتخليص مصر من أسد الدين شيركوه وجيشه، دفع منهم شاور بالفعل مائتي ألف دينار كمقدم قبل أن يتحرك جيش أموري من بيت المقدس! هل يعقل أن يرفض إعطاء أسد الدين خمسون ألف دينارا وفاءا بالعهد ثم يعطى مائتي ألف ويلتزم بأداء ثلاثمائة ألف أخرى لأمير الصليبيين أعداء الإسلام؟!

من آثار رحمة الله سبحانه وتعالى

عندما طال الحصار المفروض على جيش أسد الدين شيركوه بدأ أهالي بلبيس يقومون بتعلية الأسوار حماية للجيش المحاصر، دون أن يطلب أسد الدين منهم ذلك. وهل هناك أفضل من ذلك الموقف للتأكيد على أن شعب مصر المسلم لا يموت مهما أراد البعض له غفلة أو تغييبا؟ وإن برهن هذا الموقف الإيجابي على شيء إنما يبرهن على أن مفهوم الجهاد ليس بعيدا عن أفراد هذا الشعب.

بالطبع وصلت أخبار الحصار إلى نور الدين محمود فأدرك مدى حرج الموقف وعز عليه ترك إخوانه المسلمين على تلك الحال من المعاناة. وحتى يخفف الحصار على جيش أسد الدين، أقدم نور الدين على مناوشة المدن التي تقع تحت إمرة أموري بالشام ليضطر الأمير الصليبي إلى سحب جزءا من جيشه. وبالفعل، ضرب نور الدين في ثلاث مواقع دفعة واحدة هي حارم وجعبر وبنياس. ونتيجة لذلك، سقط حصن حارم في يد نور الدين. وتوالت هجمات نور الدين على بنياس، ووقعت معركة حاسمة قبض فيها على ريموند وبوهيموندو، وهما من أكبر الأمراء

المتواجدين مع الحملة الصليبية. وفى هذه اللحظة فوجئ أسد الدين بأن أموري يطلب منه التفاوض! ولأن أخبار انتصارات نور الدين لم تكن قد وصلت إلى أسد الدين شيركوه، فقد كانت دعوة أموري له مدعاة للدهشة حيث إن قوته أضعف كثيرا من قوة الصليبيين المحاصرين له. ومن ناحية أولى كان أموري يرغب في الإسراع إلى الشام خوفا من سقوط حصون أخرى في يد نور الدين محمود، ومن ناحية أخرى فإن أسد الدين وجد في تلك المفاوضات الفرصة لإنقاذ ألف مقاتل من المسلمين. وفعلا جرت المفاوضات بين أسد الدين وأمورى وبدأت القوات تنسحب على أن يعطى شاور لأسد الدين شيركوه خمسون ألف دينارا ذهبيا ويستكمل بقية الخمسمائة ألف التي كان اتفق عليها مع أموري. ولنا أن نتساءل عن مصدر كل تلك الأموال التي وعد بها شاور. وللأسف كانت تلك ثروات الشعب المصري الذي لم يكن يجد قوت يومه، وإنما استباح شاور خيرات مصر دون أن يجد من يحاسبه ولا أن يتذكر حساب رب العالمين له يوم القيامة.

وفى المقابل، هناك موقف يدعو للفخر بأسد الدين شيركوه، فقد جاءه جندي من الصليبيين وتحاورا كالأتي:

"(الرجل الصليبي): أين أسد الدين شيركوه؟

(أسد الدين) : أنا هو .

(الرجل الصليبي): أنت أسد الدين ... فوالله لقد كانت تبلغ عنك الأحلام!

(أسد الدين) : فوالله الذي لا إله إلا هو ، لولا أصحابي ما كنت ترددت في قتالكم لحظة واحدة، ولكنت قتلت منكم أكثر من عددنا، ولأنفض عليكم نور الدين بعدها لنقضى عليكم. فوالله ما جبنت ولا أجبن من قتالكم. فوالله الذي لا إله إلا هو لو عاد الأمر إلىّ وليس لأصحابي لفتكت بكم".

ويبدو من الموقف أن ذاك الصليبي كان شاهد عيان لقدرات أسد الدين شيركوه الذائعة الصيت أيام المعارك التي دارت وفتح عماد الدين زنكي على أثرها إمارة الرها، وبالطبع كان أسد الدين من أبرز قادتها. إذن، فكان ذلك المقاتل الغربي يعلم شجاعة القائد المسلم الذي وقف بين يديه دون أن يدرى. وكان الجندي في غاية الانبهار من صمود أسد الدين وجيشه أمام الحصار المفروض عليهم. فلما تعرف الجندي الصليبي عليه أراد أن يخبره أن الصليبيين يهابونه مهابة جعلت رغبتهم في رؤيته بمثابة الحلم الذي يتمنى المرء تحقيقه! ولذلك فليس غريبا على أسد الدين شيركوه أن يعبر عن الجسارة التي عرفت عنه من خلال آخر جملة قالها في الحوار الذي دار بينه وبين الجندي الصليبي، والتي جعلت ذلك الرجل الغربي يرسم علامة الصليب على صدره من شدة ما وقع في قلبه من خوف عندما سمع مقولة أسد الدين شيركوه له.

البنيان المرصوص ... أين هو الآن؟!

من الجدير بمكان التوقف عند موقف نور الدين محمود مما كان يجرى لجنده المحاصر على بعد مئات الأميال من الشام. فهل تقاعس؟ وهل ركن إلى عذر بعد المسافة ووقف مكتوف الأيدي مكتفيا بالترحم على من سوف يموتون جوعا بعيدا عن ديارهم؟ لا والله، لم يفعل نور الدين ما نفعله نحن الآن من تجاهل فعلى للمظالم والجرائم التي ترتكب في حق المسلمين في كافة أنحاء الأرض. والمثال على ذلك للأسف هو عبارة عن رسالة قرأها الدكتور يوسف القرضاوي وجاءت على لسان فتاة بوسناوية تعبيرا عن المجازر التي يتعرض لها المسلمون في إقليمي البوسنة والهرسك منذ أكثر من عشر سنوات في غياب روح الجهاد والدفاع عن أبناء وأراضي الأمة الإسلامية في تلكما الإقليمين. وكانت هذه الفتاة صاحبة الأحد عشر ربيعا تتلقى العلاج من الاغتصابات التي تعرضت لها على أيدي المعتدين من

الجنود الصرب وكادت تموت على أثرها. وقد تولى علاجها مجموعة من الأطباء المصريين المبعوثين من قبل نقابات الأطباء بمصر. فتحدثت الفتاة إلى الأطباء قائلة:"أين إخواننا المسلمون؟ والله لأشهدن رسول الله ﷺ يوم القيامة وأنا أسأل كل مسلم عاش تلك اللحظات التي كنت أغتصب فيها: "ماذا كنت تفعل في تلك اللحظات وأنا اغتصب؟ وما الذي قدمته لتبعد عنى ذلك المغتصب؟". وما أقوى تلك الرسالة التي تهز المشاعر والأبدان، ولكنها مازالت في انتظار رد فعل على أرض الواقع بنفس القوة ليكون خير معين على الإجابة على تلكما السؤالين أمام رب العالمين.

وعودة إلى تفاعل نور الدين محمود مع الموقف المتأزم الذي كان يتعرض له إخوانه المسلمون، فإنه دفع بقواته وفتح بالفعل كل من حارم وبنياس، بل أنه أسر ساعتها الصليبي أرناط ووضعه في السجن . وأرناط كان ذلك السفاح الذي حاول انتهاك حرمة البيت الحرام.

﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾

[الأنفال:٥٦]

وهكذا عاد صلاح الدين الأيوبي إلى الشام بينما رجع أسد الدين شيركوه إلى حمص لأنه كان واليا عليها. ومضت أربع سنوات قبل أن يعود أسد الدين وبصحبته صلاح الدين إلى أرض مصر مرة أخرى ليحصل خمسين ألف دينار ذهبي من شاور، وكانا يصطحبان معهما ألفين من الجند تحسبا لغدر شاور. وكان نجم الدين أيوب في وداع كل من صلاح الدين وأسد الدين حيث دار حوار حول كلمة "سياسة" التي كانت تثير غضب صلاح الدين لأن كثيراً من الحكام المسلمين كانوا ولا يزالون يتخذونها ستارا لخيانتهم للأمة الإسلامية عن طريق التنازل عن أرض إسلامية، أو الاتفاق مع من قتل مائة ألف من أبناء الأمة، أو التعاهد مع مجرم

من مجرمي الحرب قتل المسلمين في الخليل وقانا وغيرها. أما بالنسبة لصلاح الدين، فإن هذا النوع من الغدر المغلف بكلمة "سياسة" كان في حق شاور الذي كان بإمكانه التحالف مع الشيطان في سبيل الحفاظ على وزارته. ومن خلال الحوار مع صلاح الدين، أكد أسد الدين على ضرورة التواصل مع مصر لتحقيق الوحدة بينها وبين الشام حتى يتم فتح بيت المقدس.

وقد وصل فعلا أسد الدين ومن معه إلى الجيزة وعبروا النيل حتى وصلوا إلى قرية أطفيح. وبدأ المبعوثون من قبل أسد الدين يطرقون باب شاور لتحصيل مبلغ الخمسين ألف دينارا ذهبيا. ولثاني مرة يتنكر شاور لعهده ويعاود التحالف مع الشيطان طالبا من أموري سرعة القدوم إلى مصر في مقابل ألف ألف دينار ذهبية.، وذلك حتى يقضى الصليبيون على الجيش القادم من الشام لتحصيل الأموال. أولم يكن شاور يعلم أن هؤلاء المقاتلين المسلمين يعدون جزءا من الجيش الذي يستعد لاسترجاع بيت المقدس؟ وكيف استحل أن يضعف الجيش المسلم الوحيد القائم في المنطقة والقادر على حماية مقدرات المسلمين؟ وكيف أصبحت فكرة نزع سلاح المسلمين أمر مستساغ للمسلمين أنفسهم، أمس واليوم أيضا؟!

أما وقد قارب هذا الفصل على الانتهاء، تجدر الإشارة إلى المهمة المذكورة في ختام الفصل الماضي وهى تكمن في الاستبيان الشخصي الذي يستطيع الفرد من خلاله أن يتعرف على بعض ملامح شخصيته مثل مدى رضاه عن أفعاله، عن توجهاته، عن نفسه بوجه عام؟ هل يقبل النقد وينتفع به من خلال الإقدام على إحداث تغييرات جذرية من شأنها الارتقاء بالنفس، وبالتالي بالأمة بأسرها؟ هل هو على استعداد للتعامل مع النفس ومع الغير بناء على أسس تربوية أخذت عن التربية التي تلقاها ونشأ عليها صلاح الدين الأيوبي؟

وقبل الانتقال إلى الفصل القادم، هناك مهمة ملحة وذات طابع سامي يتمنى المسلم تحقيق أعلى الدرجات فيها، ألا وهى إحياء سنن رسول الله ﷺ في أنفسنا. فليحاول كل منا أن يلتزم بصفة من الصفات، أو فعل من الأفعال، أو قول من الأقوال، الصادرة عن خاتم الأنبياء والمرسلين. فإذا ما صدقت نية المرء في التغيير للأحسن، أقبل على الزيادة المتدرجة من محاكاته لصفات وأفعال وأقوال النبي الكريم.

***